عنصر العاطفة في أشعار القراء حتى نهاية القرن الثالث الهجري

The element of emotion in the poems of readers until the end of the third century AH

شيماء احمد سويدان رشيد الدراجي

جامعة الانبار / كلية التربية للبنات

قسم اللغة العربية / الدرسات العليا

Shaima Ahmed Sweidan Rashid Al-Daraji

Shaima.A.Sweidan@gmail.com

الملخص

إن علماء القراءات عرفوا بأنهم مختصون بقراءة القرآن الكريم وضبط الروايات ، ولكن الجانب الذي لا يعرف عنهم هو أنهم لهم اهتمامات شعرية في مختلف أصناف الشعر العربي ، لذلك سأسلط الضوء على جانب من جوانب شعرهم وهو (العاطفة) علما ان هذا البحث هو مبحث من مباحث رسالتي في الماجستير الموسومة (أشعار علماء القراءات حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دراسة فنية موضوعية) وخصصت هذه القرون الثلاثة حتى لا يطول بنا المقام ، وكذلك خصصت هؤلاء القراء الثلاثة لأنهم تكلموا عن الخيال الشعري في أشعارهم .

وقد تضمن البحث التعريف لغة واصطلاحاً ثم عرض وتحليل الأشعار التي تضمنت عنصر الخيال ، وختمت البحث بخاتمة مع أهم النتائج التي توصلت إليها.

الكلمات المفتاحية: عنصر العاطفة، شعر القراء، القرن الثالث الهجري.

Abstract

Recitations scholars were known as specialized in reciting the Holy Qur'an, and narrations (transmissions) control, but the aspect that is not known about them was their interests in the various types of Arabic poetry, so I will highlight one aspect of their poetry which is (passion) note that this research is a topic from the topics of my Master Thesis entitled (poems of recitations scholars until the end of the third century AH - objective artist study). I specified these three centuries so that I can keep it short, and I specified these three Recitations scholars because they talked about poetic imagination in their poems.

The research included defining the (element of poetic imagination) in common language and idiomatically, then displaying and analyzing poems that include the element of imagination. The research concluded with the most important results.

Keywords: the element of emotion, poetry of the readers, the third century AH.

المقدمة

علماء القراءات الذين تناولتُهُم في هذا البحث الموسوم (عنصر العاطفة في أشعار القراء حتى نهاية القرن الثالث الهجري)، يشكلون جزءاً بسيطاً من مجموع القراء الذين ينحصرون في رسالتي لنيل شهادة الماجستير الموسومة بـ (أشعار علماء القراءات حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دراسة فنية موضوعية –)، وقد اقتضت طبيعة عملي في الرسالة أنْ تكون العاطفة الشعرية مبحثاً من مباحث الفصل الثاني الواقع تحت عنوان المضامين الفنية، والشعراء من القراء الذين تناولتهم في هذا المبحث هم:

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح المَرْوَزي الحنظلي، المكنى بأبي عبد الرحمن. أخذ القراءات عن أبي عمرو بن العلاء وغيره. من كبار أئمة العلم والزهد والجهاد، مات بمدينة هيت سنة ١٨١ه أثناء مُنصَرَفِهِ من الغزو في سبيل الله.

(٢) عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود الهُذلي، المكنى بأبي عبد الله الضرير. أحد فقهاء المدينة السبعة ومؤدب الخليفة عمر بن عبد العزيز، وأخذ العلم عن أم المؤمنين عائشة وابن عباس وأبي هريرة (رضي الله عنهم). اختلفوا في سنة وفاته على أقوال أصحّها سنة ٢٠٢هـ.

(٣) محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي البغدادي المكنى بأبي عبد الله، مقرئ وأديب وشاعر عالم باللغة ومن بيت علم وأدب. أخذ القراءات عن أبيه يحيى وغيره، توفي سنة ٣١٠هـ.

وقد تألف هذا البحث من تعريف العاطفة لغةً وكذلك تعريفها اصطلاحاً، ثم من فقرة عرض وتحليل الأشعار، وقد توزعت مصادر البحث بين معاجم اللغة وكتب المصطلح وكتب النقد الأدبي، وفي الختام أرجو أنْ أكون قد وُفّقتُ إلى إبراز جانبٍ أَدبيٍّ

ومهمٍّ في أشعار علماء القراءات الذين لم يلتفت أحدٌ قبلي إلى دراسة أشعارهم، ومن الله تعالى السداد والتوفيق.

العاطفة

يتصور الكثير من الدارسين والباحثين أنَّ الشعراء من علماء القراءات لا يكتبون الشعر العاطفي؛ لأنّهم بعيدون عن العاطفة التي أودعها الله تعالى في نفوس البشر ولاسيما الشعراء. وربما يكون لهذا التصور أسباب أهمها: إنَّ العاطفة لا تكون إلّا في شعر الغزل والتشبب بالمرأة، والشعراء القراء هم أبعد الناس عن هذه الأشعار والممارسات. وقد يكون السبب أنَّ هؤلاء الشعراء القراء مُنَزَّهون أو مَعصُومون من كل عَيب وخَلَل في شخصياتهم، وبما أنَّ أشعار الغزل والعاطفة في تصور أغلب الناس إنَّما هي من المعايب والنقص في الإنسان؛ فإذن يجب أنْ يكون الشعراء من علماء القراءات هم أبعد الناس عن هذه المعايب والشذوذ في الشعر والعواطف.

إنَّ هذا الذي أقوله ضروري في مثل هذه الدراسة؛ لأجل مناقشته والإجابة عليه وتفنيده من عقول الناس؛ لأنّ هذه القضية لها أثر كبير في النقد الأدبي والآراء التي يُطلقها بعض النقاد من ذوي الآراء المحدودة أو الضعيفة تجاه شريحة كبيرة من المجتمع الإنساني، وهم شريحة القراء الذين اختصت دراستنا هذه بدراسة أشعارهم.

وترى الباحثة في مناقشة كون العاطفة مُختصةً في شعر الغزل أنَّ هذا التصور غير صحيح؛ لأنّ العاطفة إشعاع من إشعاعات النفس البشرية، فحيثما وجدت النفس البشرية فهناك العاطفة موجودة، فلا شعراء الغزل وحدهم هم المختصون بالميول العاطفية، وإنَّما جميع الناس، اللهم إلّا ما ندر. والدليل على صدق رأينا أنَّه حتى الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) يمتلكون هذه النعمة الإلهية على الرغم من أنَّهم

معصومون من العيوب والأخطاء. وأصدق دليل على صحة رأينا هذا أنَّ رسولنا الأكرم محمد (صلى الله عليه وسلم) فاضت عاطفته القلبية على ولده إبراهيم حين موته وقد فاضت عيناه الشريفتان بالدموع فقال مقولته المشهورة: «إنَّ العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يُرضي ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم محزونون»[1]، فهذه الدموع وهذا الحزن إنَّما هو ارهاصاتُ ونفثاتُ عاطفةٍ جيَّاشةٍ في صدره (صلى الله عليه وسلم)، علماً أنَّه لم يكن شاعراً، وحاشاه أنْ يكون كذلك. إذن نخلُصُ من هذا؛ أنَّ العاطفة ليست حكراً على الشعراء، وإنَّما هي قاسم مشترك بين بني الإنسان. وكم رأينا وسمعنا عن كثير من الأعلام والعظماء غير الشعراء قد انتابتهم نَزَعات العاطفة فأبدعوا في مجال عملهم أيَّما إبداع.

أما الشطر الثاني من تصور الناس في كون أشعار العاطفة والغزل أنَّها تُعدّ من المعايب والمثالب لدى الشعراء، فإنّ هذا لا يقوله عاقل مُنصف، وهو تصور مردود؛ لأنّ الكثير من الناس المستقيمي السيرة والسلوك ومنهم الفقهاء والزهّاد وكبار العلماء المشهود لهم بعدم التغزّل والتشبيب بالنساء أنَّهم كانوا يمتلكون عواطف عميقة في النفس، وقد كتب البعض منهم أشعاراً تفيض بالعاطفة العاصفة بالنفس الإنسانية في الغزل، لكنهم لم يؤثر عنهم في تراجم حياتهم أنَّهم كانوا زائغين تائهين عن طريق الحق والهداية، أو أنَّهم انحرفوا أو قارفوا الرذيلة، وأصدق دليل على صحة قولنا أشعار ابن الفارض ورابعة العدوية والكثير من الزهّاد والعبّاد الصوفيين كالغزالي والشافعي

(١) صحيح البخاري، البخاري، تح. د. مصطفى ديب بُغا، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع (د. ت)، ١: ٤٣٨، رقم الحديث: ١٢٤١. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تح. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م: ١/ ٥٤٠، رقم الحديث: ١٧٢٢.

وعبد الله بن المبارك وغيرهم.

ومما سبق، يتبيّن لنا خطل التصورات التي يثيرها البعض تجاه أشعار علماء القراءات، بل إنَّ عكس هذه التصورات هو الصحيح؛ لأنّ أشعارهم تُجسّدُ شعر العقيدة وما تنطوي عليه من المعاني الإسلامية العميقة، إذ تمتزج الأفكار التي تتضمنها هذه الأشعار في بوتقة العاطفة القلبية لتعبّر عن الأحاسيس الصادقة المفعمة بأرقّ مشاعر الحبّ الخالص وبأصدق معاني التأمل والتدبّر في الطبيعة والكون الرحيب[1].

العاطفة لغة:

اشتقاق العاطفة من الجذر اللغوي المؤلف من العين والطاء والفاء. وأقدم من ذَكَرَ أصله من أصحاب المعاجم هو الخليل بن أحمد الفراهيدي إذ قال في باب الفعل عَطَفَ: عَطَفتُ الشيءَ أي أَمَلْتُهُ، وعَطَفتُ رأس الخشبةِ أي لَوَيتُ رأسها. وتَعطِفُ على ذي رَحم في الصلة والبرِّ. ورجلٌ عطُوفٌ إذا عطف على القوم في الحرب فَحَمَى دُبُرهُم إذا انهزموا. وناقةٌ عَطوفٌ تَعْطِفُ على بَوٍّ فتَرأفهُ، ويجمع على عُطُفٍ[2].

وعند الصاحب بن عبّاد: عَطَفَهُ عَطْفا وعُطُوفاً: أماله وثناهُ، وعَطَفَ على ذي رَحِمِهِ وتَعَطّفَ عليه، وهو عَطوفٌ وعَطَّافٌ، وامرأةٌ عَطِيفٌ أي ذليلةٌ مِطْواعٌ[3].

---

(١) ينظر: البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية في الشعر العراقي الحديث، د. ماهر دلي الحديثي، دار الشؤون الثقافية، بغداد: ٧١.

(٢) ينظر: العين، الفراهيدي، مادة (عطف): ٢/ ١٧، ١٨. الصحاح، الجوهري، مادة (عطف): ٤/ ١٤٠٥.

(٣) ينظر: المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، مادة (عطف): ١/ ٤٠٨، ٤٠٩، والعباب الزاخر واللباب الفاخر، الصغاني، تَح. الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م، حرف الفاء: ٤٤١، ٤٤٢.

وفي تاج العروس: تعاطفوا أي عَطَفَ بعضهم على بعض، واستَعْطَفَهُ استعطافاً بمعنى سألهُ أنْ يَعْطِفَ عليه فَعَطَفَ. وتعطَّف على رَحِمِه: رقَّ لها. والعاطفة هي الرَّحِمُ، وتكون صفةً غالبة. والعطَّافُ هو الرجل الحَسنُ الخُلُق، والعَطُوفُ على الناس بفضله. ويقالُ: ما تثنيني عليك عاطفةٌ من رَحم ولا قرابةٍ[1].

ومن التخريجات المعجمية للفعل عَطَفَ وما يُشتقّ منه، يظهر للباحثة أنَّ الحقل اللغوي الذي تدور داخله لفظة العاطفة إنَّما يحمل معاني الميل إلى الرقّة والرحمة والشفقة التي ينطوي عليها القلب الإنساني وغيره من قلوب المخلوقات الحية في هذا الكون. فحينما نَصِفُ إنساناً ما بأنّه ذو عاطفة فهذا يعني أنَّه يحمل بين جَنَباتِ أضلعه قلباً رقيقاً ميّالاً إلى الرحمة والمحبة تجاه الناس وكل الأشياء في هذا العالم، وأنَّه بعيد عن العُدوانيةِ والغِلظَةِ والفظاظةِ في تعامله مع الآخرين.

أمّا اصطلاحاً:

عَبَّرَ القدماء عن مصطلح العاطفة بعبارة: قواعد الشعر، فقال ابن رشيق: إنَّ قواعد الشعر أربع، الرغبة والرهبة والطرب والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعّد والعتاب المُوجِع[2]، ولم يتبلور تعريف مصطلح العاطفة عند القدماء على الرغم من كونها عنصراً مهماً من عناصر الأدب عموماً والشعر خصوصاً. وذهب التنوجي إلى أنَّ العاطفة: حالة شعورية تندفع من النفس

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تَح. مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ٢٤: ١٦٥، ١٦٦.

(٢) ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تَح. د. النبوي عبد الواحد شعلان، الشركة الدولية للطباعة، مدينة ٦ أكتوبر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م: ١/ ١٩٣، ١٩٤.

البشرية إثر انفعالها بحَدَثٍ تراه أو تسمعه، أو بمشهد يؤثر فيها. وهي تقابل العقل لكنها لا توافقه، فما يراه العقل هو غير ما تراه العاطفة، وهذه العاطفة تكون مرتبطة دائماً بالشعور الإنساني ولا يمكن أنْ تنفصل عنه مهما كان الإنسان عنيداً في إظهار مشاعره؛ لأنّ العاطفة مشاعر نفسية تنبعث من النفس الإنسانية، فيعبّر الشاعر عنها بفعل عكسي[1].

وعَرَّفَ الدكتور رشيد العبيدي العاطفة بأنّها: « تلك الميول النفسية والنوازع الوجدانية المنبعثة عن الانفعالات الغريزية الماثلة في حياة الناس من كُرْهٍ وحُبّ وحزن وسرور وانقباض وانبساط ورغبة ورهبة»[2].

ومما سبق تتجلى لنا اهمية العاطفة في الشعر وضرورة تغلغلها في الشعور الذي تنبض به قلوب الشعراء. فهي تبدو واضحة في الحبّ والكراهية والحماسة، وكل المشاعر الإنسانية التي ينبوعها القلب. وترى الباحثة أَنَّه بسبب هذه العلاقة الشديدة بين العاطفة والأدب، فإنّ الشاعر لا يمكنه أنْ يصدر شعره إلّا بدافعٍ مُلِحٍّ من عاطفته، والأديب لا يكتب أدبه من عَدم في العاطفة. ويبدو لنا كذلك أنَّ العاطفة هي التي تمنح الأدب صفة الخلود والسرمدية، وأَنَّها لا تتغير في جوهرها وإنَّما في أشكالها ومظاهرها، أما أساسها فهو ثابت على الرغم من التبدلات والتغيرات التي تصيب العقل الإنساني، وهذا هو السبب الذي يجعل الشعر محبباً إلى النفوس حتى لو أعدنا قراءاته وكررناها لمرات عديدة[3].

---

(١) ينظر: المعجم المفصل في الأدب، التونجي: ٢/ ٦١٢.

(٢) الأدب ومذاهب النقد فيه، رشيد العبيدي، مطبعة التفيض، بغداد، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م: ٢٤.

(٣) ينظر: النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧، ط٤: ٣٩، ٤٠.

عرض وتحليل الأشعار :

لقد سطعت العاطفة في الكثير من أشعار علماء القراءات التي رصدناها في هذه الدراسة، ومن ذلك قول محمد بن يحيى المبارك اليزيدي:

صحيحٌ وَدَّ لو أمسى عَليلاً لتكتبَ أو يرى منكم رسولا
رآكَ تسُومُه الهِجرانَ حتى إذا ما أعتلَّ كنتَ له وَصُولا
فَوَدَّ ضَنى الحياةِ بوصلِ يوم يكون على هواكَ له دليلا
هما موتان موتُ هَوىً وهجرٍ وموتُ الهجرِ شَرَّهُما سبيلا

وقصة هذه الأبيات توحي بدلالة العاطفة الجيّاشة التي حملتها؛ ولذا فمن الضروري معرفة هذه المناسبة التي يرويها الأصفهاني بأنّ قولها كان استرجاعاً لبيتين قالهما الخليفة العباسي المأمون وطلب من الشاعر أنْ يقول شعراً على نحوهما، والبيتان اللذان قالهما المأمون هما:

صحيحٌ يَوَدُّ السُّقمَ كَيما تَعودَهُ وإنْ لم تَعُدْهُ عادَ عنها رسولُها
لِيَعلمَ هل ترتاعُ عند شَكاتِهِ كما قد يَروعُ المتفقاتِ خليلُها[1]

والبيتان تضّمنا معاناة المحب السليم الجسم الذي يتمنى أنْ يمرض لكي تزوره حبيبته، وإن لم تزره هي بنفسها فإنّه يرضى بزيارة رسول هذه الحبيبة، لعلّه ينقل إليها حال هذا الحبيب السقيم بسببها. هذه هي خلاصة هذين البيتين اللذين قالهما الخليفة المأمون، وفيهما ما فيهما من العاطفة المرهفة. فلننظر أبيات شاعرنا التي قالها مسايراً فيها حال هذا الحبيب لكنها حملت أضعاف العواطف والأحاسيس.

---

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م: ٢٠/ ٣٨٠.

لقد تمنى الشاعر في البيت الأول أنْ يغشاه المرضُ وينتابُه السقم بسبب هِجران الحبيب له، ولم يفكّر في حال أهله أو من يَعُولُهم فيما لو وقع في جسمه المرض نحولاً وقعوداً عن رزقه وعمله. وهذا التمنّي الذي يوصل المرء إلى هذه الحال من الانكسار والهبوط فإنّه يُعدُّ ضرباً من الجنون!، إذ كيف يتمنى المرء لنفسه هذه الحال؟!

إنَّه دليل واضح على العاطفة المُسْرِفة القاتلة لصاحبها، وهي نوع من المغالات في إظهار المشاعر التي يَتكتّم عليها قلب المحبّ ولا يبوحُ بها إلّا إذا كان من يهواهُ أغلى من نفسه وبدنه وكلّ ما يملك. وفي البيت الثاني يصرّح الشاعر بما دعاهُ أنْ يتمنى هذا الضنى والسقم لنفسه، وفيه إشارة إلى ظلم الحبيب الذي (يسومه الهجران) ولا يلتفت إليه إلّا (إذا ما اعتلّ). إنَّ ديناميكية الصراع بين الأنا الشاعرية والذات الأخرى التي هي ذات الحبيب الهاجر ولّدت في نفس الشاعر مَعْلَماً واضحاً هو الذي نسميه العاطفة العشقية التي استعملها لأجل بناء هذه الأبيات بناءً عضوياً درامياً متكاملاً[1]، إذ يجعل المتلقي يرثي لحال هذا القلب الشاعري الفيّاض بهذه العاطفة. ونجد في البيت الثالث يسمو الشاعر بعاطفته إلى المستوى (ضنى الحياة) وشقائها وعذاباتها من جراء هذا الحبيب القاسي. فهو يَودُّ ويُحبُّ هذا الضنى وهذا العذاب ممن يُحبُّ، لا لشيءٍ إلّا لكي يجعل هذا الضنى دليلاً على (هواك) أيّها الحبيب القاسي. إنَّها معادلة قد لا ترضي ذوي المشاعر الجامدة التي لم تذق طعم الحب والعذاب والتَّسْهيد اللَّذَين هما أبرز معالم المحبّين.

وبعد كل هذا يصدع الشاعر بحقيقة تقريرية في البيت الرابع حينما يجعل الموت على ضربين لا ضرب واحد كما هو معهود عند بني الإنسان. فالموتُ عنده الآن (موتان)، أحدهما (موت هوىً)، والآخر هو موت (هجر)، وينهي هذه الحقيقة بحقيقة جديدة،

(١) ينظر: الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، دمشق، مطبعة الجمهورية، ط١: ١٩٩١م: ٤٤.

هي أنَّ (موت الهجر شرهما سبيلا). وفي البيتين الأخيرين ترى الباحثة أنَّ الشاعر قد وضع له هوية بين العشّاق والمحبين.

وهذه الهوية جاءت من خلال عاطفته المشبوبة اللّاهبة، فكانت هذه العاطفة أوسع مجالاً لتوضيح الشخصية، وعندما تتغلغل العاطفة في الشعور والتعبير فعند ذاك تظهر الشخصية ويكون الأدب[1].

ومن شعر العاطفة قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الذي كان من كبار قراء وفقهاء المدينة المنورة:

كَتمتَ الهَوى حتى أَضَرَّ بكَ الكَتْمُ ... ولامَكَ أقوامٌ ولومهم ظلمُ
وَنَمَّ عليك الكاشِحون وقبلهم ... عليك الهوى قد نَمَّ لو نفع النَّمُّ
وزادكَ إغراءً بها طولُ بُخلها ... عليك وأبلى لَحمُ أعظُمِكَ الهَمُّ
فأصبحت كالنهديَّ إذ مات حسرةً ... على إثْرِ هِندٍ أو كَمَن سُقي السُمُّ
ألا مَنْ لنفس لا تموتُ فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعمُ
تجنّبتَ إتيانَ الحبيب تأثّماً ... ألا إنَّ هجران الحبيب هو الإثمُ
فذق هَجرها إنْ كنتَ تزعُم أنَّه ... رَشادٌ ألا يا ربّما كَذبَ الزَّعمُ[2]

هذه الأبيات كتبها الشاعر بعد طلاقه لزوجته عَتمة وندمِه على فراقها، وهي ترجمانٌ واضحٌ على دفقِ العاطفة السَّيّال الذي اجتاح نفسه ففاضت بهذه المشاعر. ففي البيت الأول يظهر الشاعر البواح لكنْ لا بلفظ من مشتقات الفعل بَاحَ وإنَّما بلفظ معاكس تماماً وهو (كتمتُ)، وشتّان ما بين الكتم والبواح. فهو بقوله: (كتمتُ الهوى) أراد

(١) ينظر: النقد الأدبي، أحمد أمين: ٤٠.

(٢) الأغاني، الأصفهاني: ٩/ ١٠٣. من غزل الفقهاء، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م: ١١، ١٢.

أنّ نفسهُ بانَ ووضح عليها الهوى وتباريحهُ ولم يستطع كتمانهُ، والدليل على بيان الهوى ووضوحه يأتينا بنفس صدر البيت في قوله: (أضرّ بك الكتمُ) أي أنَّ الضرر قد أثّر في جسمه، ولا يخفى أثر آلام الهوى وضناهُ على جسم المحبّ من الذبول والاصفرار ووهن الجسم. وترى الباحثة أنَّ هذا الاستعمال اللفظي الذي يعطينا المعنى المضاد، لا يتسنّى للشاعر إلّا إذا استَقَرتْ به عاطفته فنقلته إلى حالة من الصوفية الموغلة في حبّ الآخر، بما يجعله يعيدُ صياغة العالم الخارجي على وفق تجربته وما يضفي عليها من إحساسه اللغوي الخاص به.

ومن مظاهر تجلّي الآلام على نفسيته، ذلك اللوم القاتل والتقريع المستمر من لدن بني قومه وأهلُ عشرته الذي يُبيّنهُ قولهُ: (ولامك أقوام). فالناس من حوله يلومونه لا على طلاقه لزوجته وإنَّما على وضعه نفسه بهذا المأزق من الكتمان للحبّ والهوى حتى أضرّ بجسمه ونفسه وانتابته العلل من كل جانب؛ فالشاعر ينعتُ هؤلاء اللائمين والمبَكّتين له بالظلم فيقول: (ولومُهُمُ ظلمٌ)؛ لأنّ هؤلاء يتصورون سهولة ما يمرّ به وهَوانُهُ على النفس؛ لأنّهم لم يعيشوا تجربة اللوعة في الحبّ التي عاشها ولم يتجرّعوا كأس المرار التي تجرّعها؛ ولذلك فهم ظلمةٌ في قاموسه. وهؤلاء اللائمون الظلمة هم أنفسهم (الكاشحون) الذي ذكرهم في البيت الثاني بقوله: (ونمّ عليك الكاشحون) الذين هم مبغضون له، ويضاف إليهم في النمّ وهَتكِ السَّترِ، هذا الهوى الذي يعانيه ويكابده؛ وكأنّ الشاعر قد جسّد الهوى بصورة إنسان نمّام، إذ قال: (وقبلهم عليك الهوى قد نمّ)، فقد استعار للهوى صورة الكاشح الذي لم يرحم حاله؛ لأنّه الهوى يفضح صاحبه وكما قيل: الحبُّ تفضحه عيونه. وترى الباحثة أنَّ هذا السلوك الشاعري تأتّى من اندفاق عاطفي في نفسية الشاعر لأجل إيصال ما يعانيه إلى المتلقي، وهو بحدّ ذاته تنفيس عاطفي ورغبة جامحة في وضع هذا التنفيس أما مشاعر الآخر لكي يثير في داخله نظير

عاطفة الشاعر نفسه[1].

وفي البيتين الثالث والرابع تجيشُ عاطفة الشاعر لتطفو على مشاعر الألم والحسرة في نفسه التي كانت تشتري العذاب وتَسْتَمْرِئُهُ بقوله: (وزادك إغراء بها طول بخلها)، فهي حبيبة قاسية أذابت جسمه بقوله: (وأبلى لحم أعظُمكَ الهمّ). وهو يُشَبّه نفسه بالشاعر الجاهلي المتيّم عبد الله بن العجلان النهدي الذي مات كمداً بعد تطليقه لزوجته وحبيبة قلبه هند التي عشقها وعشقته، ولم تنجب له ولداً بعد زواجهما، فلامه أبوه والناس فطلّقها وندم على طلاقها ندماً أودى بحياته[2].

إنَّها مأساةُ عواطفٍ يعيدها الشاعر بقوله: (فأصبحت كالنهدي إذ مات حسرة على إثر هند). وهو لم يكتفِ بهذه اللوعة التي تدفّقت بها عاطفته، وإنَّما أردفها بتشبيه نفسه (كمن سُقي السُّمّ)، بل هو فعلاً كان كذلك فيما لو اقتصر على النهدي وحده؛ لأنّ هذا الأخير قتله طلاقُ زوجته هند وافتراقه عنها، فما بالك وقد اكّد معاناته بأنّه قد تجرّع السُّمّ الزُّعَاف من جراء حبّه لزوجته وتطليقه لها ؟!.

إنَّها معاناة ثنائية بينه وبين النهدي تشكل قاسماً مشتركاً لهما في مأساة لم تقتصر عليهما وحدهما فقط، وإنَّما هي لوحة من لوحات التراجيديا المتكررة في بني العشّاق والمحبين على اختلاف المكان والزمان. وهذا الطرحُ من المرسل يجسّد البساطة والصدق في معاناة الشاعر مما يجعل شعرهُ يفيض بالمتعة الشعرية التي لا تعرف الحدود الزمانية أو الانتماء المكاني[3].

---

(١) ينظر: المدخل إلى علم النفس، عبد الله عبد الحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦م: ٣١.

(٢) ينظر: ديوان عبد الله بن العجلان النهدي، تَح. إبراهيم صالح، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ٧.

(٣) ينظر: مستقبل الشعر وقضايا نقدية، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤م: ٨.

وبسبب ما سبق من المعاناة وجوى النفس الشاعرة، فإنّ الشاعر بدأ يتساءل تساؤلاً مجازياً يَنحُو به نحو الطلب ولكن أي طلب هذا بقوله: (ألا مَن لنفسٍ لا تموت فينقضي شقاها) ؟!، إنَّه طلبُ إسعافٍ لنفسه التي ظلت تقارع الشقاء بهذا الحبّ من قلب مُلْتاع، فلا هي نفس تموتُ فيموتُ بموتها شقاؤُهُ وعذاباته، ولا هي تحيا (حياةً لها طَعْمُ). إنَّها معادلة صعبة في تركيبة الذات البشرية، لكنها تُعدّ ثورة عاطفية في مشاعر المرسل الذي يهوى بعُذريَّةٍ مَبنيةٍ على أسس من عقيدته الإسلامية التي يؤمن بها قلبه وتهفو إليها نفسه. وهذا ما يلمح به في البيتين الأخيرين بأنّه يتجنب: (إتيان الحبيب تأثّماً). ثم تحت غليان عاطفته تَنُوءُ نفسيته المتعبة المثقلة بهذا الحب، فيوزع الإثم بينه وبين من يحب من خلال عبارة احتمالية (إنَّ هجران الحبيب هو الإثم). ففي (هجران الحبيب) لا ندري هل هي إضافة الهجران إليه أم إليها؛ لأنّ كل واحد منهما هو الحبيب للآخر. وأَنَّ هذه الإثارة العاطفية هي التي أدت إلى هذا الأسلوب من التعبير الاحتمالي؛ لأنّ المتلقي يظفرُ بواسطة أسلوبية النص على القصد الكامن في النص نفسه. ولما كان هَمُّ المرسل هو مخاطبة المتلقي والدخول إلى ذاته والتأثير فيه؛ لذا نجد شعره جاء ترجماناً لسياقه النفسي الداخلي؛ وكأنّ هذا الخطاب تحوّل إلى معجم للمشاعر النفسية ذاتها[1].

ومن شعر العاطفة الذي رصدته الباحثة، ما قاله عبد الله بن المبارك تقريعاً لمن يتاجر باسم الدين:

يا جاعلَ الدينِ لهُ بازياً ... يَصطاد أموالَ المساكينِ
إحْتلتَ للدنيا ولذّاتها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدّينِ
وحيّرتَ مجنوناً بها بعدما ... كنت دواءً للمجانينِ

(١) ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، دار هومة، الجزائر، ١٩٧٧م، ٢: ١١.

أيــــن روايــــاتــــك فــيــما مضى عَــن ابــن عَــونٍ وابــن سيرينِ
أيــــن روايــــاتــــك في سَردهــــا في تــــرك أبــــواب الــسلاطيــــنِ
إنْ قــلــتَ أُكْــرِهــتُ فــذا باطلٌ زَلَّ حمــارُ الــعِــلــم في الــطــينِ[1]

قد يتصور الكثير من الناس عن غير علم ولا دراية أنَّ العاطفة في الإنسان مقصورة على الحب والغزل فقط، فلا تظهر إلّا في أشعار هذا المجال، أو ربما في حالات المُجون والتَّهتُّك وتبذُّل الأخلاق والأدب لدى الإنسان. وهذا تصوّر خاطئ ووهم من الأوهام التي عشعشت في أذهان من لم يدرك ويفهم معنى العاطفة، وبسبب هذا الوهم والتصور المخطوء عند هؤلاء؛ فإنّهم يستغربون أنْ تكون هناك عاطفة في غير أشعار الغزل والحب والمجون. بمعنى آخر وحسب هذا التصور المختل عند هؤلاء، فإنّ أشعار الحرب والبطولة، وأشعار العفاف والعقيدة، وأشعار الحكمة والزهد يجب أنْ تخلو من العاطفة، وهذا ما لم يقُل به ناقد عاقل متبحّر في الأشعار والآداب، بل لم يرد في تاريخ الأدب العربي وتاريخ الآداب العالمية ما يصدق الذي ذهبوا إليه من هذا التصور، وإنَّما الذي ورد من الشعر العربي والعالمي يُفنّد تصورهم الخاطئ هذا. وهناك أدلّة تفوق الحصر والحسبان تؤيد ما قلناهُ، ولكن ليس مجالها هذه الدراسة، وإنَّما الذي يهمّنا هنا هو هذه الأبيات الشعرية لشيخ علم الحديث والقراء عبد الله بن المبارك التي تدل دلالة واضحة على عاطفة جامحة كانت تعتمل في نفس قائلها تجاه من اتخذ الدين سلعة يُتاجر بها بين الناس، وما أكثر هذه النماذج في كل عصر وحين.

(١) الورقة، ابن الجراح، تَح. د. عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٨٦م: ١٦، ١٧. ديوانه، تَح. د. مجاهد مصطفى بهجت، مجلة البيان، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٣٢ه: ١١٦، ١١٧.

إنَّ الشاعر ينادي بحرقة وألم ذلك النموذج من الناس الذي اتخذ الدين (بازياً)، أي طائراً جارحاً من الكواسر لأجل أنْ (يصطاد أموال المساكين). وقد شخصت الروايات هذا النموذج بأنّه كان من أصحاب ابن المبارك، وأنَّه استعمله الخليفة على صدقات البصرة، فطلب من ابن المبارك أنْ يُزَوِّدَه بأسماء القُراء ليشملهم بجزء من الصدقات، فأجابه ابن المبارك بهذه الأبيات محذّراً له ورادعاً من رُكُونهِ إلى السلطان؛ لأنّ هذا الركون سيُبعده عن العبادة والتعفف، وينسى ما كان عليه من سَحْتِ الخُلُق وخشية الله وحفظ القرآن والحديث[1].

إنَّ كل بيت من أبيات هذه القطعة الشعرية هو بمثابة وَخْزَةٌ مؤلمة لهذا النموذج الذي قصده الشاعر. ففي قوله: (احتلتَ للدنيا ولذّاتها) تَهَكُّمٌ وصَفْعةٌ قوية بالألفاظ لمن كان يرى نفسه سائراً على النهج القويم بينما هو على عكس ذلك في نظر الأتقى والأورع منه؛ لأنّه جاء (بحيلة تذهب الدين).

وهذا القول من الشاعر قد طَوَّحَ بكل آمال هذا النموذج، وهذا التطويح لم يكن إلّا من خلال ألفاظ كانت وراءها عاطفة شديدة، وكلما قويت العواطف وحملت مواصفات العَصْفِ بالمقابل، كانت عواطف صادقة، ولا يخفى أنَّ الأدب أداته العواطف، وهي التي تتحدث عن شعور المرسل وتثير شعور المتلقي وتسجل أمامه أدقّ مشاعر الحياة وأعمقها. وترى الباحثة أنَّ هذا النوع من العواطف يَصِحُّ أنْ نسمّيها بالعواطف الأخلاقية؛ لأنّها تميل إلى إنشاء الصدق والنزاهة والحفاظ على حرمة الدين[2].

وتأتي الأبيات الأخرى وكأنّها جلسة من جلسات المحاكمة لهذا النموذج الذي حادَ

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، (د. ت): ٤٠٤.

(٢) ينظر: النقد الأدبي، أحمد أمين: ٤٦ .

عن دينه ومال عن ما لا يُريبه إلى ما فيه الريبة والشك، يخاطبه الشاعر بأنّه صار (مجنوناً) بالاستحواذ على هذه الدنيا الفانية بعد أنْ كان (دواءً للمجانين).

وينتقل الخطاب إلى صيغة التساؤل المجازي الذي لا يبتغي المرسل منه جواباً، وإنَّما قَصدُهُ التنبيه والتهكّم عند البلاغيين[1]. والاستفهام الذي ورد مكرراً بالعبارة (أين رواياتك) يفيد التوكيد اللفظي، وهذا التكرار لم يأت إلّا بسبب انفعال عاطفي تغلغل في مشاعر المرسل؛ لأنّ أيّ الإنسان حينما يكرر عبارة ما في كلامه؛ إنَّما يكررها وفي دَواخِله تَعَمُّلٌ وانفعالٌ للّحظةِ التي يعيشها أثناء تكلّمه، وهي حالة نفسية نعيشها في حياتنا اليومية عند تعاملنا مع الآخر. ويميل الشاعر إلى إثبات تقريرات في سياق كلامه عن طريق تكرار العبارات؛ لأجل إقناع المتلقي بما يقول؛ لأنّ الاقناع يُعَدُّ أسلوباً من أساليب التأثير المنطقي في ذات الآخر، لاسيما إذا كان الخطاب يحمل حججاً منطقية[2].

ويظهر في البيتين الرابع والخامس الحِجَاجُ المنطقي عند تذكير الشاعر للنموذج المخاطب بشخصيات (ابن عون) و(ابن سيرين) وهما من كبار العلماء الزهّاد الذين ابتعدوا عن أوضار الجاه والسلاطين وظلوا على استقامتهم في الدين. ويتعدّى التذكير بهاتين الشخصيتين إلى التذكير بالروايات الحديثية التي كان هذا النموذج يصرح بها دائماً ويَحُثُّ الناس على (ترك أبواب السلاطين).

إنَّ الخطاب الشعري للمرسل استحضر كل هذه السلوكيات السابقة لهذا النموذج

---

(١) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تَح. د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م: ١/ ٤٥٢. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ١/ ٣٠.

(٢) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م: ٨٤.

من خلال سَيلٍ عاطفي منهمر لم ينقطع في نفس الشاعر.

وفي مثل هذه الحالة، ترى الباحثة أنَّ الألفاظ وحدها لا تكفي للتعبير عما في القلب من دواعي الحبّ والبغض والرضى والغضب من دون قوّة ودَيمُومة العاطفة وصدق الشعور؛ وذلك لكي يتم التآلف بين تلك الألفاظ وبين هذه العاطفة، وحتى يبلغ التعبير الشاعري محله في نفس المتلقي ومشاعره.

وممّا سبق نُدرك المرمى الذي حمله البيت الأخير من هذه القطعة الشعرية الذي يرُدّ به الشاعر على نموذجه المائل إلى السلاطين، فيتكلم الشاعر بلسان هذا النموذج بعبارة (إنْ قُلتَ أُكرِهتُ)، ثم يردّ عليه بنفس الوقت ردّاً مُفحِماً ومُخجلاً، وكأنّه لم يقتنع بهذه الحُجَّة، وهي حُجة الإكراه التي تَعَذّر بها، وعندئذ يقذف الشاعر بوجهه قذيفته الكلامية لتفنيد معاذيره بعبارة قاسية جداً: (زَلَّ حمارُ العلم في الطين)؛ وكأنّه أراد وَخْزَهُ بسَفُّودٍ في خاصرة مشاعره لأجل أنْ يثوب إلى رُشده ويعود إلى استقامته. ومن خلال ما رأيناه في هذه الأبيات من عاطفة متدفّقة، يبدو لنا أنَّ المكوّن الديني الذي ينتمي إليه الشاعر والنموذج المقابل، يشكل دافعاً للقرب والبعد بين الاثنين بما يخلق مشهداً درامياً دفع بالشاعر إلى أنْ يصل إلى أعلى لحظات التوتر فيما قاله من شعر[1].

(١) ينظر: البناء الدرامي، د. عبد العزيز حمودة، دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م: ٤١.

خاتمة البحث

اتسم هذا البحث بعرض جزء بسيط من رسالة الماجستير الموسومة (أشعار علماء القراءات حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دراسة فنية موضوعية –)، وهو بعنوان (العاطفة في أشعار القراء حتى نهاية القرن الثالث الهجري) وتضمن عرض اللمسات العاطفية الموجودة في أشعار القراء وهم:

(١) عبد الله بن المبارك الحنظلي.

(٢) عبيد الله بن عبد الله الهذلي.

(٣) محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي.

وقد توصلتُ في نهاية هذا البحث إلى عدة نتائج ومقترحات...

– أما النتائج فأهمها:

(١) يظن الكثير من الناس أنَّ علماء القراءات لا علاقة لهم مع الشعر، وقد تبين من خلال البحث أنَّ لهم أشعاراً تفوق أشعار الكثير من الشعراء المعتمدين في ساحة النظم العربي.

(٢) ظهر لي من خلال هذه الأشعار التي درستها أنَّها كانت تسير وفق موازين وبحور شعرية دقيقة وصارمة مما يوحي بأنّ علماء القراءات لم يكونوا مقتصرين على القراءات القرآنية وإنَّما كان أكثرهم لغويين وعرضين بما جعلهم ينظمون مثل هذا الشعر.

أما المقترحات التي أراها في هذا الصدد:

(١) ارجو أنْ يتولى الكثير من زملائي وزميلاتي وطالبات الدراسات العليا دراسة أشعار علماء القراءات الذين هم خارج المجال الزمني الذي تناولتهُ في مبحثي هذا

وأعني من القرن الثالث فما فوق.

(٢) أرجو أنْ تكرس الجامعات ولاسيما أقسام الأدب العربي جهودها بدراسة أشعار هؤلاء العلماء واستنباط ما فيها من خيالات ومشاعر وأحاسيس.

قائمة المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الأدب ومذاهب النقد فيه ، رشيد العبيدي ، مطبعة التفيّض ، بغداد ، ط٢ ، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م .

٣. الأسلوبية وتحليل الخطاب ، نور الدين السد ، دار هومة ، الجزائر ، ١٩٧٧م

٤. الاغتراب في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري، د. أحمد علي إبراهيم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠١٣م .

٥. الأغاني: أبو فرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٦. البلاغة العربية: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .

٧. البناء الدرامي، د. عبد العزيز حمودة، دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م .

٨. البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية في الشعر العراقي الحديث، د. ماهر دلي الحديثي، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

٩. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تَح. مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م .

١٠. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، (د. ت) .

١١. الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، دمشق، مطبعة الجمهورية، ط١ .

١٢. ديوان عبد الله بن العجلان النهدي، تَح. إبراهيم صالح، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١: ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م .

١٣. ديوان عبد الله بن المبارك، تَح. د. مجاهد مصطفى بهجت، مجلة البيان، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٣٢ه .

١٤. صحيح البخاري، البخاري، تح. د. مصطفى ديب بُغا، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، اليمامة للطباعة والنشر (د. ت)، ١: ٤٣٨، رقم الحديث: (١٢٤١)

١٥. الصحاح، الجواهري ، تح . احمد عبد الغفور العطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٩٠ م .

١٦. العُباب الزاخر واللباب الفاخر، الصغاني، تَح. الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م، حرف الفاء .

١٧. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تَح. د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

١٨. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تَح. د. النبوي عبد الواحد شعلان، الشركة الدولية للطباعة، مدينة ٦ أكتوبر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

١٩. العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تح. دكتور مهدي المخزومي ، دكتولر ابراهيم السامرائي .

٢٠. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م .

٢١. المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، تَح. الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، مادة (عطف) .

٢٢. المدخل إلى علم النفس، عبد الله عبد الحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦م

٢٣. مستقبل الشعر وقضايا نقدية، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤م .

٢٤. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تح. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م: رقم الحديث: (١٧٢٢) .

٢٥. المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٩ه/ ١٩٩٩م

٢٦. الورقة، ابن الجراح، تَح. د. عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٨٦م .